شَهْـرِ رَمَضَان مِنةٌ عُظْمَى

لقد أنعم الله على عباده بنعمٍ كثيرة لا تحصى ولا تعد (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) [إبراهيم:٣٤] ، نعَمٌ مطلقة ونعَمٌ مقيدة ، نعَمٌ دينية ونعَمٌ دنيوية ، دلَّ العباد عليها وهداهم إليها ودعاهم إلى دار السلام (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [يونس:٢٥] ، وعافاهم في عقولهم وأبدانهم ورزقهم من الطيبات ، وسخَّر لهم ما في السموات وما في الأرض ؛ وكل هذا الإنعام منه سبحانه ليشكره العباد ويعبدوه وحده لا شريك له ، لينالوا مرضاته ويفوزوا بمنَنِه ورحماته .

وإن من عظيم هباته وجزيل نعمائه على عباده المؤمنين أن شرع لهم صيام شهر رمضان المبارك وجعله أحد أركان الدين العظام ومبانيه التي عليها يقوم ، ولما كان صيام رمضان من النعم العظيمة التي منَّ الله بها على عباده ختم الله الآيات التي أمر فيها بصيام شهر رمضان بقوله تعالى : (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [البقرة:١٨٥] ؛ لأن الشكر هو الغاية من خلقه للخلق وتنويعه للنعم .

وأصلُ الشكر وحقيقته : " الاعتراف بإنعام المنعِم على وجه الخضوع له والذل والمحبة ، فمن لم يعرف النعمةَ بل كان جاهلاً بها لم يشكرها ، ومن عرفها ولم يعرف المنعِمَ بها لم يشكرها أيضاً ، ومن عرف النعمة والمنعِم لكن جحدها كما يجحد المنكرُ لنعمة المنعِم عليه بها فقد كفَرَها ، ومن عرف النعمة والمنعِم وأقرَّ بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرضَ به وعنه لم يشكرها أيضاً ، ومن عرفها وعرَف المنعِم بها وخضع له وأحبّه ورضي به وعنه واستعملها في محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها "(١) اهـ .

وبهذا يتبين أن " الشكر مبنيٌّ على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور ، وحبّه له ، واعترافه بنعمته ، وثناؤه عليه بها ، وأن لا يستعملها فيما يكره ؛ فهذه القواعد الخمس هي أساس الشكر وبناؤه عليها ، فمتى عدِم منها واحدةٌ اختل من قواعد الشكر قاعدة ، وكلٌّ من تكلم في الشكر وحدّه فكلامه إليها يرجع وعليها يدور "(٢).

والناس متفاوتون تفاوتاً عظيماً في تحقيق الشكر لتفاوتهم في العلم بموجباته بمعرفة الخالق الجليل والرب العظيم والمنعم الكريم ، فمنهم من عرف الله بتفاصيل أسمائه وصفاته وأفعاله وبديع مخلوقاته ومفعولاته وجميل آلائه وهباته؛ فامتلأ قلبه حباً له ، ولهج لسانه بالثناء عليه ، ولانت جوارحه قياماً بما يرضيه ، واعترف له بكل نعمه التي أنعم بها عليه وسخرها في ما يحبه ويرضاه ، ومنهم من دس نفسه بالغفلة عن الله والجهل به فلم يزدد من الله إلا بعداً بجحوده وإنكاره ، أو باعترافه به وعدم الانصياع لأمره والانقياد لشرعه .

وشهر رمضان المبارك منحةٌ إلهية وهبةٌ ربانية للعباد ليزداد الذين آمنوا إيماناً وليتوب من كان مفرِّطاً ومقصِّراً، ولقد اختص الله هذا الشهر بخصائص وميَّزه بمزايا انفرد بها عن سائر الشهور ، ولنقِف على بعضها لندرك عظمة هذه النعمة التي أنعم الله بها علينا لنشكره حق الشكر ونعبده حق العبادة:

· إن لشهر رمضان الكريم – شهر الصوم – خصوصية بالقرآن ؛ فهو الشهر الذي أنزِل فيه القرآن الكريم هدى للناس قال تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) [البقرة: ١٨٥] ، فقد امتدح الله تعالى في هذه الآية الكريمة شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره لإنزال القرآن العظيم ، بل قد ورد في الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء، ففي المسند للإمام أحمد والمعجم الكبير للطبراني من حديث واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ لِستٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ لأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ)) (٣) ؛ فهذا الحديث يدل على أن شهر رمضان هو الشهر الذي كانت تنزل فيه الكتب الإلهية على الرسل عليهم السلام، إلا أنها كانت تنزل على النبي الذي أنزلت عليه جملة واحدة ، وأما القرآن الكريم فلمزيد شرفه وعظيم فضله فإنما نزل جملةً واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، وكان ذلك في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك كما قال تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) [القدر:١] ، وقال سبحانه : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ) [الدخان: ٣] ، ثم بعد ذلك نزل مفرَّقاً على مواقع النجوم يتلو بعضه بعضاً . وفي هذا دلالةٌ على عِظَم شأن شهر الصوم – شهر رمضان المبارك – وأن له خصوصية بالقرآن الكريم ؛ إذ فيه حصل للأمة من الله هذا الفضلُ الكبير، نزولُ وحيه العظيم، وكلامه الكريم المشتمل على الهداية (هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) الهداية لمصالح الدين والدنيا ، وفيه تبيان الحق بأوضح بيان ، وفيه الفرقان بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والظلمات والنور .

· ثم إن شهر رمضان فيه ليلة القدر التي قال الله عنها: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) [القدر: ٢-٣] ، أي العمل فيها خيرٌ من العمل في ألف شهرٍ سواها ، وكذا الأجر .

· وصيام هذا الشهر سببٌ لمغفرة الذنوب ؛ أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)) (٤) أي : إيماناً بالله ورضاً بفرضية الصوم عليه واحتساباً لثوابه وأجره ، ولم يكن كارهاً لفرضه ولا شاكاً في ثوابه وأجره ؛ فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه . وفي مسلم عن أبي هريرة أيضاً أن

النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ)) (٥) .

· إضافةً إلى ما تقدم ذِكرُه ؛ فإن من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، وأنه تصفَّد فيه الشياطين ، وتُفتح أبواب الجنة وتُغلق أبواب النار ، ولله في هذا الشهر عتقاء من النار وذلك كل ليلة .

· وفي هذا الشهر المبارك نصَرَ الله المسلمين على أعدائهم المشركين في غزوة بدر الكبرى ، وكان عدد المشركين في تلك الغزوة ثلاثة أضعاف المسلمين ، وفيه فتح الله مكة المكرمة البلد الآمن على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وطهَّرها من الأصنام ، وكان عدد الأصنام في البيت وحوله ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحطم هذه الأصنام ويقول: (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) [الإسراء:٨١] ، فهو شهر الجدِّ والنشاطِ والعمل ، شهر العبادةِ والجهادِ في سبيل الله ؛ فحقيقٌ بشهرٍ هذا فضله وهذا إحسان الله على عباده فيه أن يعظِّمه العباد ، وأن يكون موسماً لهم للعبادة وزاداً ليوم المعاد .

اللهم اجعلنا ممن يعرِف لهذا الشهر مكانته وحُرْمَتَه ، ووفِّقنا للقيام فيه بما يرضيك إنك سميع الدعاء .

اللهم وفِّقنا لطاعتك ، وأعِنَّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، ويسِّرنا لليسرى ، وأتِمَّ علينا النعمة بالقيام بحق هذا الضيف الكريم ، وأعنّا على صيامه وقيامه وحُسن الأدب فيه يا رب العالمين.

*****

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم (ص: ١٧٥).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/٢٤٤).

(٣) مسند أحمد (٤/١٠٧ رقم: ١٦٩٢١). والطبراني (١٧٦٤٦) ، واللفظ للإمام أحمد.

(٤) متفق عليه ؛ البخاري (٢٠١٤) ، مسلم (٧٦٠)

(٥) مسلم (٢٣٣).